

قناة لوغوس بالولايات المتحدة الأمريكية
إيبارشيّة لوس أنجلوس
لقاء على الهواء. السبت ٢١ نوفمبر ٢٠١٥ م
الراهب القس أنناسيوس المقاري

سرّ المعمودية

• في البدايات المبكرة من المسيحية، كان التّغطيس في مياه المعمودية يجري في منتصف ليلة عيد الفصح (ساعة صباح الديك)، قبل قدّاس العيد مباشرة. ويكشف لنا الطّقس القبطي القديم أنّ بداية المراحل التّهادية لمنح المعمودية كانت تبدأ عقب الانتهاء من صلوات يوم الجمعة العظيمة، والذي يُدعى "يوم الاستعداد" Parasceves. فقد نشأ ارتباط وثيق بين طقس المعمودية، كموت وقيامه في المسيح، وبين التّعيد للفصح، وهو ما ذكره أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) في مقال له عن الفصح، كان مفقوداً، وتم اكتشافه حديثاً^(١). كما أنّ فترة الصّوم التي تسبق عيد الفصح، كانت مناسبة لتعليم طالبي المعمودية حقائق الإيمان المسيحي^(٢). ومع نهاية القرن الخامس الميلادي تقريباً، أو في غضون السّادس الميلادي، بدأت المعمودية في الانعزال عن ليلة الفصح. وهي الظاهرة التي ظهرت بوادرها في القرن الرّابع الميلادي، أي ظاهرة انفصال الوحدة الليتورجية للاحتفال بالأم الربّ وقيامته معاً.

ومنذ القرن الثّاني الميلادي وحتى الرّابع، أُضيف عيد العنصرة أيضاً لسبب ازدياد المراسيم الطّقسية التي طالت عيد الفصح، ولأنه في عيد العنصرة، أظهر المسيح نفسه حياً للتلاميذ، وفيه أُعطيت نعمة الرّوح القدس. ومنذ القرن الرّابع، أُضيفت إلى هاتين المناسبتين السّابقتين، عيد الإيفانيا، لأنه يوم معمودية السيّد المسيح له المجد.

أمّا كنيسة الإسكندرية فتشير الوثائق القديمة فيها، إلى أنّها كانت تمنح المعمودية في عيد الفصح وعشيّة عيد الظهور الإلهي (الغطاس)^(٣). وبدءاً من أواخر القرن العاشر الميلادي، اختصّ يوم الأحد الذي يسبق أحد الشّعائين، وهو المعروف بـ "أحد التّناصر"، اختص بتعميد كثير من الأطفال في فجر هذا اليوم.

ولكن في حالات الضّرورة القصوى، وعند خطر الموت، أو بحسب ما ترى الكنيسة، كانت المعمودية تُمنح في أيّ وقت، وفي أيّ مكان.

وأما أقدم حُجرة معمودية في الكنيسة المسيحية، فكانت في عين دورا قبل سنة ٢٥٦م^(٤). ويحتفظ الطّقس القبطي بالتقليد القديم، بالأّيدخل الكاهن إلى حُجرة المعمودية إلّا في وقت تبريك مياه المعمودية لتتميم التّعميد^(٥). ومع شيوع معمودية الأطفال، اعتاد الأقباط تشييد جُرن المعمودية ليس بقرب البهو الخارجي للكنيسة وإلى التّاحية البحرية منه، بل في

1- Annick Martin, *Athanase d'Alexandrie et l'Eglise d'Egypte au IV^e siècle (328-373)*, Rome, 1996, p. 166.

٢- إنّ الحقيقة الليتورجية الهامة التي أوذ التّأكيد عليها هنا، هي أنّ فصول القراءات الكتابية التي وُضعت في أيام الصّوم المقدّس الكبير، لاسيّما في الأسابيع التي تقترب من عيد الفصح، قد وُضعت بعناية، لتعليم الموعوظين، قبل أن تكون فصولاً كتابية تُقرأ في الليتورجيا. ذلك لأنّه من المعروف أنّ فصول القراءات في الصّوم المقدّس الكبير في أيام الصّوم من الاثنين إلى الجمعة، عُرفت في الكنيسة المسيحية الأولى قبل أن يُعرف إقامة الليتورجية اليومية طيلة أيام الصّوم. فلم تكن إقامة الليتورجية طيلة أيام الصّوم هي الطّقس القديم للصّوم. أمّا وقت هذه الفصول الكتابية فكان في صلوات الصّباح والمساء في الكنيسة.

3. *The Coptic Encyclopedia*, 1991, p. 338.

4. *ODCC*, 2nd edition, p. 129 .

5. *Ibid.*, p. 201.

أماكن أخرى غير محدّدة في كنائسهم، وأحياناً ضمن كنائس صغيرة جانبية Chapelles^(٦).

ومنذ القرن الثاني عشر في كنيسة مصر، صار بناء حجرة المعمودية ناحية الشرق عن يمين الكنيسة، وهو الأسقف الذي وضع طقس تكريس المعمودية الجديدة. فيذكر العالم الطقسي شمس الرئاسة ابن كبر (+١٣٢٤م) عن تكريس المعمودية الجديدة العنوان التالي:

”ترتيب تكريس المعمودية. يُقرأ عليها ثلاث أواسي مختصّة بها، وتُرشم بالمبرون. والذي ربّه أنبا بطرس أسقف البهنسا في تكريسها إذا بُنيت بناءً جيّداً. أن يكون بناؤها في الشرق عن يمين البيعة، ويُصوّر فوقها صورة يوحنا المعمّد وهو يعمّد سيّدنا له المجد...“^(٧). ويذكر العالم الطقسي ابن كبر (+١٣٢٤م) أن تُحفظ المعمودية بباب وقفل، وتكون مكرّسة، وتُملأ بماء جديد نظيف، وتوقد حولها الشموع والمصابيح لتكون منيرة^(٨).

وهو نفس ما يشير إليه طقس الكنيسة القبطية في القرن الخامس عشر حيث يذكر البابا غريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) في كتابه ”الترتيب الطقسي“ أن موضع الرُشومات التي تسبق المعمودية، هو مكان غير حُجرة المعمودية ذاتها. فيقول: ”كلّ كنيسة لها مكان بمفردها للرُشم على عادتها“^(٩).

• ويعود الفضل إلى العلامة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م) في وضع أوّل بحث متكامل عن المعمودية المقدّسة، موضّحاً أن منح المعمودية يكون بغطسات ثلاث في الماء، ووصفاً أجزاء أخرى من الطّقس مثل الصّوم الذي يسبق المعمودية، والسّهر الليلي الذي يسبق ليلة المعمودية، وكذا الاعتراف بالخطايا، وجحد الشيطان، والاعتراف بالإيمان، ووضع اليد بعد التّغطيس، واللّبن والعسل اللذان يتناولهما المعمّد ودلالاتهما الطّقسية.

• ويحدّد القدّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) أن مصدر طقوس المعمودية، هو التّقليد، فيقول:

[إننا نبارك ماء المعمودية، وزيت المسحة، كما نبارك المعمّد نفسه أيضاً. فأية وصايا مكتوبة علّمتنا أن نفعل هذا؟ أليس التّقليد السّري المقدّس؟ وأيضاً الدّهن بالزيت، أية كلمة في الإنجيل علّمت به؟ وأين ورد تغطيس الإنسان ثلاث مرّات؟ أيّ كتاب جاء بكلّ الأمور اللاّزمة للعماد وجحد الشيطان وملائكته؟ ألم يأت إلينا من التّعليم السّري الذي حافظ عليه آباؤنا في صمت دون أن يُكتب كتعليم عام...؟ إذا لا تبحثوا الأمر بتطفل، لأنّه كيف يحقّ تعميم الأسرار كتابة، هذه التي لا يُسمح لغير المعمّدين حتى أن يطلّعو عليها؟] (الرّوح القدس ٢٧:٦٦).

الأسماء القديمة للمعمودية

تسمية المعمودية بـ ”الختم“ σφραγίς هو أحد أسمائها القديمة. ولقد استخدم العهد الجديد تعبير ”ختم“ في ثلاثة مواضع منه إشارة إلى المعمودية^(١٠). ويدعوها القدّيس يوستينوس الشّهيد (١٠٠-١٦٥م) باسم ”ماء الحياة“^(١١) ὕδωρ ζωῆς و”استنارة“^(١٢). وعند العلامة كليمنس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م) تُدعى: ”نعمة“، ”استنارة“، ”كمالاً“، و”حميماً“^(١٣). وعند العلامة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م) هي: ”ختم العهد الجديد“، و”ختم الإيمان“^(١٤). ويدعوها القدّيس غريغوريوس اللاهوتي: ”يوم الأنوار“، و”العطيّة“، و”الخلاص“. كما يدعوها القدّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م)

6. Le premier dom Fernand Cabrol et le R.P. dom Henri Leclercq, *Dictionnaire d'archéologie chrétienne et de liturgie (DACL)*, t. 2, Paris, 1925, t. 2, p. 259.

٧- مخطوط رقم (عربي ٢٠٣) بالمكتبة الأهلية بباريس، وهو كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر.

٨- نفس المرجع، الباب ١٥

٩- الأنبا غريال الخامس، التّرتيب الطّقسي، مرجع سابق، ص ٤

١٠- انظر: ٢ كورنثوس ١: ٢١، ٢٢

١١- الحوار مع تريفو: ٢٣

١٢- الدّفاع الثاني: ٦٤

١٣- المرثي ١: ٢٦

١٤- العلامة ترتليان 4 de spectst,

”معمودية الخلاص“^(١٥) و”الختم الذي يختم قلوبنا“^(١٦). وعند يوسابيوس القيصري، تُدعى: ”ختم الرب“^(١٧). وعند ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧ م) هي: ”ختم الروح القدس“^(١٨). وهو نفس التعبير الذي استخدمه القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦ م) من قبل. وهذا الأخير يدعوها أيضاً: ”فداء الأسرى“، و”مغفرة الذنوب“، و”موت الخطايا“، و”الميلاد الجديد للنفس“، و”ثوب الثور“، و”الختم المقدس الذي لا يمحي“^(١٩). ويدعوها القديس غريغوريوس النيسي (٣٣٥-٣٩٥ م) ”نعمة الميلاد الجديد“، و”العلامة الملكية“^(٢٠). أمّا تعبير ”الولادة الجديدة“ فقد ورد كثيراً عند آباء الكنيسة كاسم من أسماء المعمودية^(٢١).

ومن بين الأسماء القديمة للمعمودية في الصلوات الطقسية للسرّ في الكنيسة القبطية: ”حميم الميلاد الجديد“، و”اللباس غير الفاسد“، و”الثور“، و”حلة الثور“، و”ختم المسيح“.

أنواع المعموديات

(١) الاستحمامات المقدسة في الديانات الوثنية.

نقرأ عند العلامة ترطيان (١٦٠-٢٢٥ م) وصفاً للاستحمامات والوضوءات التي كانت معهودة في الديانات الوثنية ذات الأسرار، وذلك في معرض مقارنته بينها وبين المعمودية المسيحية، فيقول:

[... وعلى هذا النحو، يدخلون الوثنيين بالاستحمام إلى بعض الأسرار، كأسرار إيزيس وميترا. بل يحملون آلتهم على الاستحمام، وينضحون بالماء النقي منازلهم وهياكلهم، بل مُدناً بأكملها لتطهيرها. وفي أثناء الألعاب الأبولونية والبيلويزية يغتسلون بكثرة، ظانين أنهم إذ ذاك يتجددون وتُغفر ذنوبهم]^(٢٢).

(٢) معمودية موسى.

يذكر القديس غريغوريوس اللاهوتي (٣٢٩-٣٨٩ م) معمودية موسى، وذلك في عظة له في عيد الظهور الإلهي (العظة رقم ٣٩)، فيقول عنها:

[إن موسى كان يُعمد، ولكن تعميده كان بالماء، وقبل ذلك في الغمام وفي البحر. وهذا كان رسماً فقط كما رأى بولس الرسول أيضاً].

مع أن موسى نفسه لم يكن يعمد بشهادة الأسفار المقدسة، ولكن القديس غريغوريوس يشير هنا إلى أنواع الغتسلات والتطهيرات بالماء، التي أمر بها ناموس موسى

(٣) معمودية المتهودين.

وهي تُسمى معمودية المتهودين أو المهتدين أو الدُخلاء Proselyte Baptism. وكانت تُمارس احتفالاً بدخول أحد الأُميين للديانة اليهودية. وكان الماء فقط هو المستخدم في طقسها. وهي معمودية لم يمكننا حتى الآن اقتفاء آثارها الأولى بدقة، ولكن هناك من الدلائل ما يشير إلى أنها لم تبدأ قبل القرن الأوّل الميلادي، فلم يرد ذكرها لا في أسفار العهد القديم ولا في أسفار ما بين العهدين، ولا عند فيلو (١٣ ق.م-٥٠ م). ولا عند يوسيفوس (٣٧-١٠١ م)، وهي لذلك لم تكن مبكرة

١٥- القديس باسيليوس الكبير، الروح القدس، ترجمة دكتور جورج حبيب بباوي، ٢٤:١٠، العظة ١٣ عن المعمودية.

١٦- نفس المرجع، ٢٨:١٢

١٧- تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصري، ترجمة القمص مرقس داود، القاهرة، ١٩٧٩ م، ٦:٥٠٦

١٨- عظة ٣ على كورنثوس الثانية.

١٩- مجلد ٣٣:٣٦٠

٢٠- مجلد ٤٦:٤٢٤ انظر: سلسلة ينابيع الأرثوذكسية، معاني رشم الصليب، ص ١٩

٢١- انظر مثلاً: القديس باسيليوس الكبير، الروح القدس، مرجع سابق، ٢٦:١٠

بالقدر الذي يسمح لها بأي تأثير على طقوس ومراسيم المعمودية المسيحية^(٢٣). وهي معمودية كانت تُمنح للرجال والنساء والأطفال والعبيد من الأمم.

(٤) معمودية يوحنا المعمدان.

ومعمودية يوحنا المعمدان هي غير معمودية الدخلاء أو المهتدين، إذ أن القديس يوحنا المعمدان قد مارسها لليهود كما للأمم أيضاً (مرقس ١: ٥)، فلم تستثن أحداً، فهي معمودية لكل الناس والأجناس، للرجال، والنساء، والأطفال، والعشّارين، والجنود، معمودية الشعب كله، هيمّة لقبول المسيح.

(٥) معمودية ربنا في مياه الأردن.

هذه هي المعمودية التي صارت أساساً لمعمودية العهد الجديد، وبالتالي فقد أبطلت كل المعموديات التي سبقتها، والرموز التي أشارت إليها، لأنه حيث يتحقق الرموز إليه، يبطّل الرمز.

(٦) معمودية التلاميذ.

ليس هناك فرق بين معمودية يوحنا المعمدان والمعمودية التي أجزاها التلاميذ قبل الصليب والقيامة، لأن هذه الأخيرة أيضاً كانت للتوبة والاستعداد. فالمعمودية لا يكتمل فعلها إلا بموت المسيح وقيامته، ولا تنتقل إلينا إلا بالروح القدس الذي وحده يقدر أن ينقل إلينا موت المسيح وحياته وقيامته. وهذا يوضحه العلامة تريليان (١٦٠-٢٢٥م) بقوله:

[تلاميذ المسيح عمّدوا كخُدّام، ويوحنا كذلك عمّد كسابق، فتكون معمودية التلاميذ هي معمودية يوحنا نفسها لا معمودية أخرى، إذ لم توجد ولا توجد معمودية أخرى سوى المؤسسة من يسوع المسيح. وهذه المعمودية لم يكن ممكناً أن تتم وقتئذ من التلاميذ، لأنه في ذلك الوقت لم يكن مجد الرب قد أتضح تماماً، وفاعليّة الحميم لم تكن بعد قد تأيّدت بألامه وقيامته] (في المعمودية: ١١).

(٧) معمودية الماء والروح.

وهي معمودية لا تكتمل إلا بالماء والروح معاً، وليس بأيّهما فقط.

(٨) معمودية الدم أو الشهادة.

يقول القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م):

[إن بعضنا نالوا الموت بالجهاد الذي عن حُسن العبادة، لأجل المسيح حقيقة لا إقتداءً، ولم يحتاجوا إلى شيء من الرسوم التي من الماء لخلاصهم، لأنّهم اعتمدوا بدمهم] (إلى لامفيلوشيوس عن الروح القدس ١٥: ٣٦).

وفي النهاية أورد هنا صفحة من مخطوط بمكتبة دير القديس أنبا مقار تحت رقم (ق٢/٢) مسلسل (٢٦٣)، يعود إلى القرن السادس عشر، وهو مخطوط يجوي مجموعة قوانين كنسية. ولكنّ النسخ دون في إحدى ورقاته تأملاته الخاصة، أنقل منها ما يختص بالمعمودية، موضوع حديثنا فيقول:

هناك تسع معموديات:

الأولى: معمودية موسى في السحاب والبحر.

الثانية: معمودية يشوع بن نون عند دخوله بيني إسرائيل أرض الميعاد.

الثالثة: معمودية يوحنا بالماء للتوبة.

الرابعة: معمودية المخلص من يوحنا.

الخامسة: معمودية التلاميذ بالروح القدس (في يوم الخمسين).

السادسة: دم الشهداء عند سفك دمائهم.
السابعة: دموع الخطاة عند التوبة بالاعتراف.
الثامنة والتاسعة: معموديتنا لبس القلنسوة (الرهبنة)، والإسكيم.

• ذهب بعض مؤرخي الأديان إلى القول بأن المعمودية المسيحية ليست سوى استمراراً للعماد الذي نجده في الديانات الوثنية ذات الأسرار. ولكنه استنتاج ساذج اعتمد على المظهر الخارجي فقط دون أن يبحث في الجوهر. فالوضوءات الوثنية لا تستند إلى حدث تاريخي ينبع وجودها وجوهرها منه، بل هي استعمال عفوي نابع عن اقتناع الإنسان بضرورة التطهر للاقتراب من الإله، ومن جهة أخرى بما توحى به طبيعة المياه، وعلاقتها المباشرة بالنظافة والتقاوة.

أما ما أكسب المعمودية المسيحية صفة مغايرة لمعموديات الديانات الوثنية، فهو عماد السيد المسيح نفسه ابن الله في مياه الأردن، كحدث تاريخي خلاصي إلهي أبدي، بدأ في مياه الأردن وامتد حتى اليوم، يهب لكل المعتمدين على مثاله باسم الآب والابن والروح القدس، ميلاداً جديداً من الله، فيدعى المعمدون على مثاله "أبناء الله". وهذا من فم الرب نفسه: «المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح» (يوحنا ٣: ٦). إذا فعل الروح القدس في المعمودية هو الذي أعطى للمعمودية المسيحية معناها الذي لا يوجد مثله في الديانات الوثنية، أو أية ديانات أخرى. لذلك ففيما كانت تُكرّر الاستحمامات والوضوءات مراراً وتكراراً بلا انقطاع، تُعطى المعمودية المسيحية مرة واحدة، لأنها ميلادٌ حقيقيٌ كاملٌ نهائيٌ من الله، وممتدٌ فيه «الذين وُلدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بل من الله» (يوحنا ١: ١٣).

• كانت الغنوسية تعلم أن المادة شريرة، وبالتالي لا يجوز أن تدخل في الأسرار، ولكن العلامة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م) لا يؤكد قداسة الماء فقط كعرش للروح الإلهي منذ بداية الخليفة، بل يؤكد حلول الروح على المياه، واستمرار بقائه يرف عليها لكي يمنح المادة (أي المياه) قوة فعالة للتقديس.

شروط تنميط المعمودية المسيحية

• الأسقف هو الذي يتم المعمودية، أو من ينيبه الأسقف من الكهنة المساعدين له في الخدمة وبتصريح منه وبموافقته، باستثناء سرّي الميرون والكهنوت، اللذين لا يمكن تنميطهما بدونه، حاضراً الصلاة ورئيساً لها. ولقد سُمح أحياناً للشمامسة، أن يعمدوا، مثل فيلبس الشماس^(٢٤)، ولكن ذلك لم يكن إلاً لداعي ضرورة كلبية، حيث يكون الأسقف أو القس غائباً^(٢٥). فنقرأ في "المراسيم الرسولية" (١١: ٤٦: ٨): "لا يُسمح للشماس أن يرفع القربان، أو أن يعمد، أو أن يبارك صغيراً أو كبيراً".

ويحدّد القديس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠م) - أسقف ليون، وأبو التقليد الكنسي - يحدّد في كلامه من له حق التعميد قائلاً: [يجب الخضوع للكهنة الذين أقيموا في الكنيسة متسلسلين بحسب الخلافة من الرسل، وأخذوا المواهب الحقيقية بمسرة الآب مع الخلافة الأسقفية. أما الباقون الذين لم ينالوا الكهنوت بخلافة رسولية، وهم يجتمعون خارج الكنيسة حيثما اتفق، فيجب أن نحسبهم أناساً مشوهين وهراطقة وأردياء وعصاة ومتعجرفين ومتكبرين ومرائين. وأنهم لا يتعاطون ذلك إلاً محبة في المديح والمجد الفارغ]^(٢٦).

• بحسب سفر أعمال الرسل، فإن الإيمان لا بد أن يسبق المعمودية. وهو ما تحدث عنه آباء الكنيسة. فمثلاً يقول القديس باسيليوس الكبير:

[... المعمودية والإيمان هما طريقان للخلاص، لا يمكن فصلهما. لأن الإيمان يكمل المعمودية، والمعمودية

٢٤- انظر: أعمال ٥: ٦، ٨، ١٢، ١٣، ٣٨

٢٥- العلامة ترتليان، في المعمودية فصل ١٨

٢٦- ضد الهراطقة ٤: ٢٦

مؤسّسة على الإيمان، وكلاهما مؤسس على الأقاليم الثلاثة^(٢٧).

فالإيمان قبل المعمودية، وإن كان شرطاً للهرباء عن الكنيسة. فهو في معمودية أطفال المسيحيين يأتي بعد المعمودية، حيث يعتمد الطفل على إيمان والديه، حتى يدرك، فيلقن الإيمان. وفي جميع الحالات، فإن الإيمان مطلوب من الكل بعد المعمودية أيضاً.

فالختان - وهو أبرز رموز المعمودية في العهد الجديد - كان هو ختم العهد الذي صار بين الله وإبراهيم ونسله (تكوين ١٧). وطبقاً للتقليد الكتابي، كان الختان ملزماً لكل ولد عبراني عندما يبلغ من العمر ثمانية أيام (تكوين ٤:٢١). أي أن دخول الولد العبراني في العهد لم يكن مبنياً على أي فعل من جانبه، بل على تدبير العناية الإلهية لحياته عندما شاء الله له أن يولد من أبوين ينتميان إلى شعبه المقدس. فصار الختان بذلك هو العهد الذي اختار به الله هذا الولد ليصير واحداً من شعبه قبل أن يدرك الولد هذا الاختيار أو هذه الدعوة.

ولكن ما أن يصل الولد إلى سن الإدراك حتى يصبح الختان الذي اقتبله في جسده، وكسمة تميزه على غيره من الناس، سبب مسؤولية والتزام تجاه واجبات ملزمة له تتناسب مع ميزة انتمائه إلى الله، كعضو من أعضاء شعبه المقدس.

وينقل القديس بولس الرسول في العهد الجديد مفهوم الختان كعلامة عهد بين الله والإنسان نقلة جبارة، يهدم بها الختان نفسه كرمز قديم بطل في العهد الجديد عندما حلت المعمودية محله (رومية ٢:٢٦-٢٩)

إن ختان المسيح الذي أكمله في نفسه، ليكمل عن البشرية كلها حكم التاموس، قد أبطل الختان كعهد قديم بين الله وشعبه، إذ حلَّ عهد جديد بينهما بالمعمودية. «وبه أيضاً (أي بالمسيح) ختنتم ختاناً غير مصنوع بيد، بخلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح، مدفونين معه في المعمودية التي فيها أقمتم أيضاً معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات» (كولوسي ٢:١١، ١٢).

• وأيضاً، الصوم لا بد أن يسبق المعمودية. وهو ما تحدثت عنه "الديداخي" في أواخر القرن الأول الميلادي. وكتاب "الترتيب الكنسي المصري" (أوائل القرن الثالث الميلادي)، و"قوانين هيبوليتس" (القرن الخامس) المصرية الأصل والتأليف، إلى جانب التقليد الإثيوبي. فهي تشير كلها إلى أن منح المعمودية، كان يسبقه صوم لمدة يوم أو يومين في البداية. ولكن كُتب الطقس الحديث في الكنائس الشرقية الآن، لا تتحدث عن أصوام يلزم أن يمارسها طالبو المعمودية، كإعداد سابق لمعموديتهم. ولا زالت الكنيسة القبطية تمارس سر المعمودية في حالة صوم للمعمد والمعمد كلاهما معاً.

• تُمنح المعمودية بغسطات ثلاث في الماء باسم الثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس. وكانت المعمودية المسيحية في الكنيسة الأولى تُمنح باسم الرب يسوع، على أساس نصوص كثيرة من سفر الأعمال^(٢٨). ولكن منذ نهاية القرن الأول المسيحي على أكثر تقدير، أصبحت المعمودية تُمنح في كل مكان باسم الثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس.

ونقرأ عن إشارات واضحة للمعمودية، من كتاب "الديداخي" الذي تم تأليفه باليونانية في نهاية القرن الأول الميلادي. حيث يظهر أن 'معمودية الماء والروح' كانت تمارس منذ البداية باسم الثالوث القدوس، وكان يسبقها أيضاً 'صوم'، يمتد إلى يوم أو يومين قبل المعمودية. كما يتضح أيضاً أنها كانت 'تُمارس بمشهد من آخرين'.

• المعمودية المسيحية لا تُعاد مرة ثانية، لأنها موت مع المسيح وفيه، لمرة واحدة (رومية ٨:٦)، وقيامه معه كل حين. فهي سمة لا تُمحي أبداً^(٢٩). ونقرأ عند القديس بولس الرسول: «رب واحد وإيمان واحد ومعمودية واحدة» (أفسس ٤:٥). ويقول القانون (٤٧) من قوانين الرُّسل: "أسقف أو قسيس يُعمد ثانية من كان قد اقتبل المعمودية الحقيقية، أو لم يعمد من تدنس مع غير المؤمنين، فليُجرّد كمنتهزئ بالصليب، ويموت الرب، ولم يميز الكهنة الكاذبين". فلا تُعاد المعمودية إلا بمعمودية الهراطقة

٢٧ - القديس باسيليوس الكبير، الروح القدس، مرجع سابق، ٢٨:١٢

٢٨ - أعمال ٢:٣٨، ١٠:٤٨، ١٩:٥

٢٩ - انظر: رومية ٦:٤-٦، كولوسي ٢:١٢، عبرانيين ٦:٤، ٢٧:٧، ١٢:٩، ١٠:١٠

إذ لا تُحسب معمودية. وظلّت معمودية المراهقة تُقلق الكنيسة حتى القرن السابع الميلادي.

علاقة الماء بالروح في سرّ المعمودية

يوجز القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) معنى كون المعمودية بالماء والروح وليس بأيّهما فقط دون الآخر فيقول: [أعطانا الربّ مدبّر حياتنا عهد المعمودية وجعله رمزاً للحياة والموت. فالمياه تُكمّل صورة الموت، أمّا الروح فهو يعطينا عربون الحياة. ومن هذا يمكننا أن نجيب بوضوح على السؤال عن علاقة الماء بالروح، ذلك أنّ غاية المعمودية مزدوجة:

أولاً: القضاء على جسد الخطيئة لكي لا يثمر للموت (رومية ٦: ٦؛ ٥: ٧).

ثانياً: الحياة بالروح التي تُثمر القداسة (رومية ٦: ٢٢).

ويحدث هذا عندما تتقبّل المياه الجسد، مثلما يتقبّل القبر الجسد، بينما يسكب الروح القوّة المحيية، ويجدّد نفوسنا من موت الخطيئة، ويعيدنا إلى الحياة الأولى] (الروح القدس ١٥: ٥).

ويؤكّد ذلك أيضاً القديس كيرلس الكبير (٤١٢-٤٤٤م) فيقول:

[المياه البسيطة بعد استدعاء الروح والمسيح والآب، تتقبّل قوّة جديدة للتّقدس] (٣: ٣٠).

ويقول القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م):

[لماذا تُعدّ المياه ضروريةً للمعمودية؟ وهذا بدوره يقودنا إلى سؤال آخر، لماذا كان الثّراب ضرورياً لخلق الإنسان؟ ... إنّ الدور الذي تقوم به المياه ضروري ولا يمكن استبدال الماء بأيّ شيء آخر ... في المياه يتم الدّفن والموت والقيامة والحياة. كلّ هذه تحدث مرّة واحدة، عندما تغطس رؤوسنا تحت المياه كما لو كنّا في قبر ...] (عظة ٢٥ على إنجيل القديس يوحنا).

ويقول القديس غريغوريوس النّزيرني (٣٢٩-٣٨٩م):

[لأنّنا من طبيعتين، أعني الجسد والنّفس، الأوّل منظور والثاني غير منظور، لذلك فإنّ التّطهير هو أيضاً مرّكب من الماء والروح. التّطهير المنظور بالماء للجسد، والثاني المصاحب له غير منظور ولا يخصّ الجسد. الأوّل ظاهر والثاني خفي يطهّر الأعماق] (عظة ٤١ على المعمودية).

إنّ عمل الروح القدس في مياه المعمودية توضّحه معمودية المسيح نفسها، حينما حلّ الروح القدس عليه وعلى المياه، وهو ما جعل الكنيسة تستدعي الروح القدس في خدمة المعمودية. وفي ذلك يقول العلامة تريليان (١٦٠-٢٢٥م): [اعتمد المسيح أعني طهّر الماء بعماده] (ضدّ اليهود: ٨).

ويقول القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) أيضاً:

[عندما تنزلون في الماء لا تفكّروا في المادة المجرّدة، بل تطلّعوا إلى الخلاص بقوّة الروح القدس. لأنّه بدونهما كليهما لا يمكن أن تصيروا كاملين. فمن يعتمد بالماء ولا يكون متأهلاً للروح، لا يتقبّل نعمة الكمال] (عظة ٤: ٣).

وفي عظة أخرى له يقول أيضاً:

[كما أنّ الذي يدخل في الماء ويُعمّد يُغمر بالمياه من كلّ جهة، هكذا قد اعتمد تماماً من الروح أيضاً. الماء يغمر من الخارج، وأمّا الروح فيعمّد النّفس داخلياً بلا انقطاع] (عظة ٢: ٣).

• الدّفن في مياه المعمودية لا يلغي غرائز الإنسان، ولا يلغي جنوحها للشّر والباطل، إنّما بالمعمودية يوهب الإنسان قدرة فائقة على طبيعة البشر، يوجّه بها الغريزة ناحية القداسة والمحبة والطّهارة، بعد أن كانت توجّه لخدمة

الجسد والعالم. وإن تيقنا أن سر المعمودية المقدس يمتد ليشمل حياة الإنسان كلها، أدركنا في النهاية أنه بداية الطريق إلى الله، لا نهاية الطريق إليه.

مصادر الطقس الإسكندري لسر المعمودية

إن الآثار السحيقة في القدام لطقس المعمودية في كنيسة مصر، قد حفظت لنا في المجموعات القانونية القبطية القديمة، والتي تشكل اليوم القانون الكنسي لكلا الكنيستين القبطية والإثيوبية. وهي مجموعات قانونية، مؤلفة من وثائق، تستند إلى أصل رسولي. ومن أهم هذه المجموعات القانونية، "قوانين الرسل" في تقليد الكنيسة القبطية، سواء في نصها القبطي الصعيدي، أو القبطي البحيري، أو العربي بعد ذلك. وهذه القوانين المذكورة هي نتاج أقدم الترجمات التي قام بها الأقباط لمجموعة كتب، ألفت أصلاً باليونانية، وهي: كتاب "الديداخي" أي "تعليم الرسل" في أواخر القرن الأول الميلادي، وكتاب "التقليد الرسولي" لهيبوليتس، في أوائل القرن الثالث الميلادي^(٣٠)، والكتاب الثامن من مجموعة كتب "المراسيم الرسولية" في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي.

ومن حولي الأسقف سراييون^(٣١)، والمعاصر للبابا أناسيوس الرسولي (٣٢٨-٣٧٣م)، نجد به صيغة بركة لجرن المعمودية، وصلوات تعزيم على الموعوظين، وصلوات أخرى كثيرة، تحدّد تتابع خطوات منح المعمودية المقدسة للموعوظين. ويرى العالم أخيلس M.H. Achelis أن حولي سراييون هو وثيقة مصرية أصيلة، إذا ما قورنت بالقوانين المصرية *Constitutions égyptiennes* إذ تعطينا انطباعاً بأنه توجد وثيقة أخرى أقدم من كليهما، قد نقلتا كل منهما عنها. وبرغم أن صيغ المعمودية في حولي سراييون غير مرتبة إلى حد ما، إلا أنه يمكننا أن نتعرف من خلالها بسهولة على الطقس المصري *L'ordo égyptien* كما وصفته لنا الوثائق القديمة.

وعد "قوانين هيبوليتس" القبطية، من أهم القوانين المصرية التي تحوي شرحاً لطقس المعمودية في القرن السادس الميلادي. وإن كتاب "عهد الرب" *Le testament de notre seigneur* هو قريب جداً في نصه من "قوانين هيبوليتس" المصرية، بل يُظن أنه ترجمة متأخرة لها. ولقد ترجمه يعقوب الرهاوي (٦٣٣-٧٠٨م) أسقف الرها (إديسا) Jaques d'Edesse من اليونانية إلى السريانية سنة ٦٨٧م. وهذه الوثيقة السريانية التي ترجع إلى أواخر القرن السابع الميلادي، قد لعبت دوراً هاماً في مجموعات القوانين القديمة في نصيها العربي والإثيوبي كما يعتقد غالبية علماء الليتورجيا. ومن ثم فقد أصبح كتاب "عهد الرب" هو أول الكتب الثمانية المرسله على يد كليمنس، عند كل من مقاره الراهب في مجموع قوانينه، وأيضاً أبي البركات بن كبر.

وأما الأمر الهام جداً، فهو اكتشاف العالم الألماني أنطون بومستارك A. Baumstark لمخطوطة في مكتبة الفاتيكان بروما^(٣٢) تحوي ترجمة عربية لكتاب "عهد الرب" عن نسخة قبطية له، يعود تاريخها إلى سنة ٦٤٣ للشهداء/ ٩٢٧م. وهي تحوي صلوات الرسامات، وصلوات الإفخارستيا. أما ليتورجية المعمودية فيها، فقد حل محلها صيغة ليتورجية وردت في نهايتها، وهي مختلفة عن الوثيقة السريانية التي ترجمها يعقوب الرهاوي، والسابق ذكرها مباشرة، وهي صيغة مصرية الأصل تماماً، إذ نجد في جزء كبير منها، ما يمارسه الطقس القبطي لسر المعمودية.

ولقد نشرها العالم بومستارك A. Baumstark مع ترجمة لاتينية لها، وأرجع تاريخها إلى حوالي القرن السادس الميلادي، لأنها قريبة الشبه جداً من الصيغ القديمة التي تظهر في "الترتيب الكنسي المصري" *Règlement égyptien* و"قوانين هيبوليتس"،

٣٠- وهو الكتاب الذي حفظته كنيسة مصر تحت اسم "الترتيب الكنسي المصري".

٣١- عثر عليه الأب دمتريفسكي M. A. Dmitrievsky في مخطوط يوناني رقم (١٤٩) بدير لافرا Lavra في جبل آثوس، وهو مخطوط يعود إلى القرن الحادي عشر، ونشره للمرة الأولى سنة ١٨٩٤م. ومن بعده دكتور جورج فوبرمين Dr. G. Wobbermin الذي نشره سنة ١٨٩٩م طبقاً لنفس المخطوط.

والقوانين الكنسيّة المصريّة المنسوبة للقديس باسيليوس الكبير^(٣٣). أي أنّ الطّقس القبطي لسرّ المعموديّة كان قد اكتمل مضمونه في غضون القرن السّادس الميلادي.

إنّ ترتيب طقس المعموديّة القبطي برغم أنّه تشكّل في خطوطه العريضة منذ القرنين الثالث والرّابع الميلاديين، إلّا أنّه قد تقنّن نهائياً بعد الانقسام الخلقيدوني الذي كان في منتصف القرن الخامس الميلادي. ولم يتسبّب هذا الانقسام في إحداث أيّ تغييرات أساسيّة في التّرتيب الطّقسي القبطي القديم. وإنّ كنيسة الإسكندريّة كانت ولا تزال تضع كلّ فخرها في أمانتها وحفظها لطقوسها القديمة.

لقد ظلّ طقس المعموديّة القبطي يُنسخ من مخطوط لآخر حتى منتصف القرن الثامن عشر، عندما ظهرت أوّل طبعة لطقس المعموديّة القبطي في روما مع ترجمة لاتينيّة له، بواسطة الأنبا روفائيل الطّوخي، طبقاً لمخطوط طقس مصحّح ومثبت أصالته. وقبل البدء في طباعته، قابله مع مخطوط المطران يوسف شمعون السّمعاني (١٦٨٧-١٧٦٨م)^(٣٤)، ونشره الطّوخي في ثلاثة أجزاء؛ الأوّل سنة ١٧٤٩م في تعليم الموعوظين، والثاني في نفس السنّة أيضاً في المعموديّة، والثالث سنة ١٧٥٠م في سرّ التّثليث. وذلك ضمن موسوعة ليتورجيّة^(٣٥). وفي المقدّمة التي وردت على رأس هذه الثلاثة أجزاء، أكّد الطّوخي على التّجانس الثّام بين نصّ السّمعاني ونصّ المخطوط الذي أحضره من مصر.

ولا نعرف على وجه التّحديد العصر الذي تثبّت فيه كلا الطّقسين القبطي والإثيوبي بشكليهما الذي نراه حالياً. ولكن يُعتبر البابا غبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) البطريرك الإسكندري الـ ٨٨ هو الذي أعاد صياغة الطّقس القبطي الحالي لسرّ المعموديّة، وذلك في مؤلّفه الشّهير ”التّرتيب الطّقسي“ ووضع له حواشي بالعربيّة، وهي الحواشي التي نجردها في طبعي السّمعاني والطّوخي في القرن السّابع عشر الميلادي.

٣٣- انظر للمؤلّف كتاب: ”مصريّة القوانين الكنسيّة المنسوبة للقديس باسيليوس الكبير“.

٣٤- هو من أخصب المؤلّفين المسيحيين في الشّرق في العهد العثماني. قضى معظم حياته في مكتبة الفاتيكان، يكتب ويؤلّف وينقّب في المخطوطات. وكان ملماً بجميع اللّغات الشّرقية القديمة، وبأكثر اللّغات الحديثة الشّرقية والغربيّة. ولا تزال مؤلّفات السّمعاني مرجعاً هاماً للباحثين الشّرقيين، رغم مرور أكثر من مائتي سنة على وفاته.